لقاء قناة الفيحاء بالدكتور إبراهيم الجعفري
2008/5/17
(الدين والدولة)

المقدم: هل هناك أزمة في الفكر السياسي الإسلامي العراقي على المستوى التنظيمي أو التنظيري؟

الجعفري: يجب أن نفرّق بين أزمة الفكر وأزمة التفكير، مثلما ينبغي أن نفرّق بين أزمة الدين وأزمة التدين، في تقديري الدين لا يعاني من أزمة، ولا الفكر يعاني من أزمة إنما طريقة التفكير الديني وطريقة التنظير في آليات العمل ربما تعاني من أزمة، وتعكس بمجملها قدرة هذه المجموعة وتلك، وهذه الشخصية أو تلك، فالدين من الله - تبارك وتعالى – وقد توافر على فكر إنساني انطلق من الله - تبارك وتعالى – وأعطى، وتوجّه إلى البشر؛ لتنظيم حياتهم ضمن مفردات الشريعة.. تبقى قدرات البشر على فهم الدين بناءً على تطورات الحياة هذه قد تتفاوت من مرحلة إلى أخرى ومن ظرف لآخر، ومن شخص لآخر، فحتى ما تسميه بالأزمة التي تعصف أحياناً لا تعبّر هذه الأزمة عن نقص في الفكر إنما نقص في التفكير وطريقة استنتاج الفكرة، وهذه تعرضت لها كل الأفكار من دون استثناء.

المقدم: هنالك أفكار قومية وأفكار يسارية كانت في أربعينيات القرن العشرين، هل تعتقد أن الأحزاب الإسلامية مشابهة لهذه التيارات، وهي معبّأة بالشعارات وغير قادرة على مواجهة متطلبات الديمقراطية؟

الجعفري: الأفكار الماركسية والأفكار القومية والأفكار الأخرى باعتبارها تنطلق من الناس تحتمل النقص ابتداءً، ولا تدّعي لنفسها أنها فكر ديني وأنها مُنزَلة من الله - تبارك وتعالى -؛ لذا رد بعضهم على الآخر ممن ينتمون إلى ذات الهوية سواء كان فكراً أممياً كما نهضت فيه الماركسية أو فكراً قومياً كالأحزاب القومية العربية، أو الأحزاب الأخرى، وعانت الفكرة في بواكيرها وهي أذهان مفكريها، فتجد تنظيراً وتشطيراً في الأفكار، ومنابع الفكر البشري تختلف من شخص إلى آخر، مثلاً الماركسية أنجبت اللينينية والستالينية والبروتوسكية، وانعكست على الآليات فأنجبت البلشفيك والمنشفيك، وكذلك الفكر القومي سواء كان عربياً أم أوروبياً.
فهذا التعدد في الفهم يُسجّل فوارق بالاجتهادات واستنتاجات الأفكار والتنظيمات والقوالب الفكرية وطريقة التطبيق بين مجموعة وأخرى، لكنك لا تستطيع أن تعزو ذلك إلى المنبع؛ لأنك أمام فكر هو ليس فكراً بشرياً، إنما هو فكر من الله - تبارك وتعالى - وأراده للبشر وهو يواكب الحياة، ويدفعها نحو التطور، وقد أثبت الواقع أن الفكر جاء لسعادة البشر، وأنه

لا يعاني من أزمة من حيث المنبع كما قلت قبلاً، إنما يعاني من أزمات الذين يعتنقون الفكر، وقد لا يُوفـَّقون في طريقة استنتاج هذه الأفكار.

المقدم: طالما قارنتَ بالتاريخ الأوروبي والحضارة الأوروبية، والفكر الديني في أوروبا وكذا الفكر القومي بأنه خلّف مآسي وحروباً وقتل ملايين الناس، والفكر الديني لم يؤسس دولة مدنية.. هل ينطبق ذلك على الوضع في العراق؟

الجعفري: من غير الصحيح أن نستنسخ، وندوّر تجربة الفكر الديني في أوروبا، أو نطبّقه، ونحكم على الفكر الديني هنا؛ لأن منابع الفكر تختلف، فقد عانى الفكر الديني من طريقة فهم الكنيسة للدين، وصادف في القرن السابع عشر على سبيل المثال أن تواجه الحركة العلمية الناهضة التي كان من روادها "غاليلو" و"كوفرنيكوس" و "وليم هارفي" وكثير من العلماء والمكتشفين والمخترعين واجهوا أزمة عصفت بهم باسم الكنيسة؛ لأنهم خرجوا على جغرافية الكنيسة، وتسلطت على رقابهم محاكم التفتيش، وأودت بحياة الكثير منهم، وكان من ضحاياهم "غاليلو"؛ لأنه قال بدوران الأرض حول الشمس، وبعد ذلك بقليل ثبت أن الحقائق العلمية التي رفع لواءها هؤلاء صحيحة وواقعية، وأنهم قـُتلوا ظلماً وعدوانا؛ لذا يعتقد الأوروبي بشكل شعوري ولا شعوري أن العلم انتصر على الدين، وما كان للعلم أن يشق طريقه في الحياة لو لم يتصدَّ، ويواجه الدين.. هذا اعتقاد خاطئ؛ لأنه لم يكن أمام الدين بذاته إنما كان باسم الذين حملوا اسم الدين سواء كانت بعض الكنائس المُحرّفة أو محاكم التفتيش المشكـّلة.
الدين الإسلامي يعطي العلم والعلماء وضعاً مقدساً ومكانة خاصة، والله - تبارك وتعالى - ميّز بين الناس بمستوياتٍ علمية:
((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون))
((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات))
فتدوير هذه التجربة وهذه الاستنتاجات مما حصل في أوروبا، وسحبه على الشرق أعتبره شيئاً غير صحيح، فالإسلام يحترم العلم، ويحث على التحصيل، ويعتبر طلب العلم فريضة على كل مسلمة ومسلم.

المقدم: هناك من يقول إن الأحزاب الدينية في العراق ليس لها موقف واضح من تكوين الدولة نتيجة لامتداداتها الخارجية سواء كانت أحزاباً سنية أم أحزاباً شيعية ومن ثم استبدلت مفهوم الدولة بمفهوم الأمة، وهذا مفهوم فضفاض، ما هي نظرة الدكتور الجعفري لمكونات الهوية الوطنية العراقية؟

الجعفري: مفهوم الدولة ليس مفهوماً بديلاً عن مفهوم الأمة، فالدولة أساساً تقوم على أربعة عناصر هي شعب، وأرض، ودستور، وحكومة، وتقوم أيضاً على حاكمية، أي سلطة

حكومة، ليس حكومة من حيث الهيكلية، إنما حكومة من حيث الفاعلية، والدالة لتطبيق القانون والدستور على ذلك الشعب لتلك الأرض، ومفهوم الأمة هو التجمع البشري المعروف الذي تجمعه عوامل سواء كانت تاريخية أو لغة أو مصالح مشتركة أو مصلحة معينة أو موقع جغرافي ما. مفهوم الأمة ليست بديلاً عن مصطلح آخر، نعم.. حينما تؤمن الأمة بقيم معينة ومبادئ معينة تستطيع أن تحتل موقعاً متقدماً من خلال إيمانها بالقيم الحقة والعدالة الاجتماعية وممارسة دور بناءٍ؛ لذلك جاء في القرآن الكريم آيات قرآنية كريمة تحث الناس على أن يكونوا أمة:
((كذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا))
أما عن مسألة الأحزاب، فمثلما نفرّق بين الفكر الديني بصورة عامة والفكر غير الديني يجب أن نفرّق بين الأحزاب الدينية وغير الدينية، فالحزب الديني ليس له الحق في أن يفرض فكراً معيناً على أفراده، ويكون هذا الفكر فيما يتعلق بالعقيدة، إنما يستنبط، ويجتهد في استخراج أفكار، وهذه الأفكار ذات طابع تنظيمي وإداري، يأتي بتصورات ومفاهيم ونظريات عمل، سواء كان في الحقل الاجتماعي، أو السياسي، أو الاقتصادي، ويتولى ذلك وهذه ليست بالضرورة تعكس فروقاً مذهبية أو طائفية، فعندما نقول الحزب الشيعي أو الحزب السني أنا لا أعتقد أن حزباً ما يحترم نفسه، ويريد لنفسه أن يكون حزباً يتحرك فقط في طائفة معينة، ويقتصر بأفراده على أفراد تلك الطائفة، ربما يكون قدره خصوصاً عندما عاش عصر الحِصارات أن يتحرك في مساحة شيعية، أو يتحرك في مساحة سنية.

المقدم: يدور في الشارع العراقي أن الدولة العلمانية هي النظام الأمثل لدولة متعددة الأعراق؟

الجعفري: إذا كنت تقصد علمانية سامبول أو ميكافيلي التي حمل لواءها بعض المفكرين في الغرب، واجتاحت الغرب، وأشعلت حربين عالميتين في ساحة أوروبا، وامتدت إلى أميركا والشرق، وأودت بحياة ما لا يقل عن سبعين مليون ضحية، فهذه علمانوية لا علمانية.
أنا لست علمانياً، وأخالفها، لكن أتقبل إذا أراد مجتمعي أن يتفاعل معها، وأدلي بدلوي مقابلها، لكن عندما تكون علمانوية تفرض نفسها وترفض الآخرين، فهذا الفرض الذاتي والرفض للآخر، وإقصاؤه لا ينبغي أن نقبله، حتى عندما نكون أمام حالة إسلاموية تريد أن تقتل غير الذي تعتقد به، فالإسلام بريء منها؛ لأن الإسلام دين المحبة والثقافة، ويجيد فن التعارف مع الآخر.

المقدم: هناك من أساء استخدام الديمقراطية في الغرب، وأخذ منها آلياتها، فالفاشية وصلت بآليات ديمقراطية لكنها احتكرت المشهد السياسي، ومنعت تداول السلطة، وما يحصل في العراق هو إن الإسلاميين أخذوا آلياتها فقط، وهي الانتخاب والوصول إلى السلطة؟

الجعفري: إذا أردت مني أن أنتقد التجربة هنا، أو أنتقد بعض الإسلاميين فأنا أعرف أن بعض الإسلاميين أساؤوا للإسلام من خلال التطبيق، والأمر نفسه للديمقراطيين فالممارسات أفضت إلى وجود حالة اغتيال لبعض الأفكار من تطبيقات المحاصصة التي أدت إلى تقديم المفضول على الفاضل، بعكس الآية القرآنية الكريمة:
((أتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير))
فيقدّم الأقرب للقيم والقريب الفكري على المتميز والكفوء العلمي بسبب الشخصنة والذاتية.

المقدم: فيما يخص حزب الدعوة الإسلامية، أين هم، أين نتاجهم الثقافي.. هل تسلمكم السلطة غيّب دوركم الثقافي والجماهيري؟

الجعفري: منذ أن انطلق ركب الدعوة الميمون منذ عام 1957 تأسيساً من السيد الشهيد (قدس الله نفسه) وضع أسسه ونظرياته، وخط منهجه بنشراته الأولى، كان قد رفع لواء التغيير وإصلاح المجتمع، وقدّم ضحايا في هذا الطريق، وواجه الظلم في شدة عنفوانه، وعرف الدعاة أنهم في خطوط المواجهة، وعرفهم أبناء مجتمعهم بأنهم مضحون في خنادق التضحية أعاروا جماجمهم، وأزهقت أرواحهم في سبيل التخلص من الدكتاتورية.
عندما نقيّم الدعوة فكراً، فهو فكر بنّاء لإصلاح المجتمع، وبناء عُراه وفق موازين العدالة وتحقيق الرفاه والدعوة بالكلمة الطيبة والتعايش مع الآخرين؛ لذا استخدمت الدعوة هذه الطرق في نشر أفكارها، وانطلقت جحافل الدعاة من هذا الركب، وعمّوا مختلف مناطق العراق بل حتى في خارج العراق، ولعل الكثير ممن سمع عن هؤلاء، هذا فكر أودعه السيد الشهيد الصدر (قدس الله نفسه) في مخزون الدعوة، وهو إلى الآن يعطي ثماره الطيبة.
الدعوة موجودة في تأريخ العراق والحالة الاجتماعية، وكذلك في حاضر العراق، حتى الذين تركوا الدعوة تنظيماً أو اختلفوا معها تنظيمياً ظلوا يفكرون بعقل الدعوة، ويسعون من أجل تحقيق أهدافها، التي تصب في الصالح الاجتماعي العام.

المقدم: حين كانت الحركات اليسارية تسيطر على الشارع كان هناك نتاج ثقافي واسع للدعاة موازٍ لنتاج اليساريين.. الآن لا نجد في الشارع كتاباً واضحاً للدعاة أو مكتبة واضحة، ولا يوجد نتاج ثقافي بمستوى حجم الدعوة.. إلى ماذا تعزو ذلك؟

الجعفري: قد أتفق معك أن الكتابات لم تكن بالحجم الذي يتناسب مع فكر الدعوة الخاص وتأريخها العريق، وتضحياتها الجزيلة، ففي زمن الدكتاتور أحاطت بالدعوة ظروف صعبة، وكانت تعيش حصاراً قاسياً، واليوم فالممارسات من قبيل الديمقراطية والانتخابات

والعمل السياسي الحاكم والمعارضي صار تقليداً، يُتعاطى باستمرار، أما عندما تقول ما يترشح من فكر وتنظير، فأقول كان الأصح أن يُكتَب أكثر.

المقدم: يقال: ليس هناك خط فاصل بين الحزب والدولة، فالدكتور الجعفري والأستاذ المالكي عندما تسلّما رئاسة الوزراء، كان كل المكتب من مستشارين ومدراء عامين من تنظيم حزب الدعوة، ومن ثم نقلوا الحزبية إلى الدولة.. ماذا تقول في ذلك؟

الجعفري: هذا الكلام مجانب للحقيقة، فالشخصية التي تنتمي لا يعني أن تتحرك في أروقة الدولة من خلال كونها ممثلة تمثيلاً حرفياً للدعوة، الإنسان له أكثر من شخصية مهنية وهذه لا تتعارض.
حزب الدعوة عمل ومايزال لخدمة الدولة، ولم يسخّر الدولة لخدمته، ويحاول أن يوظف ما لديه من إمكانات وشخصيات ورجال ليخدموا البلد..

المقدم: ما طبيعة علاقتكم الحزبية مع السيد نوري المالكي، يقال إن هنالك خلافات داخل حزب الدعوة الإسلامية أسفرت عن تكوين جناح جديد للدعوة وجناح للسيد الجعفري، ماذا تقول في ذلك؟

الجعفري: أنا لست رجل أجنحة، ولا رجل انشقاقات، ليس لضعف فيّ لكن لأنفة؛ لأني أعتبر هذا الشيء لا يشرّف، وعندما أعمل داخل حزب لا أعمل كمحور، وأحوّل هذا إلى حالة انشقاق أو جناح.. أنا أنطلق للحزب من فكرة والفكرة أكبر من الحزب، وأعيش الحزب، وأنظر إليه من خلال الفكر والمبادئ والقيم التي أحملها.
أنا أتصور أن الخلافات في وجهات النظر عندما تعبّر عن فهم معيّن فهذه خلافات مشروعة وطبيعية جداً، وعندما دخلنا مرحلة الحكم فأنا أنظر إلى الحزب بمقدار ما يُضفي، ويشارك في بناء الدولة وبناء مؤسساتها وممارسة دور البناء والتنمية بكل مرافق المجتمع، ويمد يده لكل القوى الخيرة حتى إذا كانت من مذاهب متعدد وديانات متعددة وقوميات متعددة على أن يكون رائدنا هو خدمة البلد، وعندما أختلف مع الآخرين في وجهة النظر لا تتحول عندي هذه الخلافات إلى نمطيات متضادة، إنما أطرح نمطية موازية للآخرين فأحترم وجهة نظرهم، وأنطلق بثقة وشجاعة، وأكمل دوري الذي أعتقد به، هذا مارسته في المعارضة واليوم أيضاً أمارسه، وأعتقد أن فكر الدعوة يتسع لهذا التنظير المتعدد وهذه الخلافات في وجهات النظر.

المقدم: ما موقف الدكتور الجعفري من خطة فرض القانون الأخيرة، وصولة الفرسان في البصرة أو المواجهات الموجودة الآن في مدينة الصدر، أحد قادة الدعوة وصف موقفكم أو اعترض على موقفكم من خطة فرض القانون، ماذا تقول في ذلك؟

الجعفري: بالنسبة لي كنت واضحاً كما هي عادتي.. خطة فرض القانون لابد منها ونحن أيضاً في الحكومة السابقة كنا نعمل ليل نهار من أجل تطبيق القانون بشكل عادل على الآخرين، وأي أحد يخرج على القانون فرد الفعل الطبيعي هو الردع، وتحكيم القضاء، وعندما نواجه سياقات مسلحة تحاول أن تخرّب فالأجهزة المختصة لأي سياق مسلح هو الأمن وقواه التي هي الداخلية والدفاع تحديداً، هذا شيء طبيعي منذ أن طُرحت قضية عملية البصرة، وراقبنا الموقف من كثب، وأعطيتُ وجهة نظري ببيان واضح حددت الخطوط العريضة بأننا مع خطة فرض القانون وتقوية الحكومة، ويجب أن نميّز بين المجاميع المخرّبة والقواعد الشعبية للتيارات الوطنية، ومنها التيار الصدري، هذا كنت صريحاً به حتى أقطع الطريق أمام الذين ينافقون، ويحاولون أن يتاجروا بتفسير الألفاظ بغير معانيها، وهكذا دعوتُ مجموعة من الشخصيات، وتداولنا، وتعاملنا مع القضية، ثم وجهت كلمة عندما رأيت أن القضية تحركت، وحدثت بها بعض الضحايا في أوساط المدنيين، وقضَّ مضجعي هذا كثيراً، وآلمني؛ لذلك وجهت خطاباً مباشراً، لحقن الدم، فنحن مع خطة فرض القانون، وتقوية الحكومة ومواجهة المخرّبين، لكن على أن نحفظ للمدنيين وقواعد الحركات والتيارات حقها ونحترمها، وعندما نفكك بين هذه المسارات نكون قد وضعنا الشيء في محله، هذا هو دور الحكومة وشرعية الحكومة مستمدة من الالتزام بهذه الخطوط حتى تكون معبّرة عن إرادة الشعب العراقي.

المقدم: ما موقف حزب الدعوة من الشباب، فلا نرى دماءً جديدة، فالقادة الموجودون هم أنفسهم منذ فترة طويلة، ولم نلاحظ قيادات شابّة جديدة في حزب الدعوة.. بماذا تفسّر ذلك؟

الجعفري: لا أجيبك كناطق رسمي لحزب الدعوة، إنما أجيبك كداعية، وكما أفهم الدعوة، وأفهم فكرها:
حزب الدعوة انطلق من أحضان الشباب، واعتمد الشباب مادةً في الحركة، واعتمدهم مادة مستهدفة من الجامعات، وانطلقت الدعوة، وانتشرت ومن خلال الجامعات، وامتدت بامتداد الطلاب والخريجين، بعد ذلك إلى مختلف دوائر الدولة، والظروف الاستثنائية التي أحاطت بالدعوة في ظروف المعارضة قبل انهيار النظام حالت دون أن تنتشر هذه بالطريقة التي انتشرت فيها في الستينيات، والسبعينيات وبداية الثمانينيات، لكن الدعوة لا تتعامل مع الشباب فقط على أنهم أعضاء في التنظيم؛ لأن هذا مفهوم ضيّق وحزبوي وليس حزبياً.